البنية الكبرى
للنص الخطبة من نهج البلاغة

المدرس المساعد

مجيب سعد

(جامعة الكوفة - مركز دراسات الكوفة)

البنية الكبرى

للنص الخطبة (١١) و (٦٦) و (١٢٤)

من نهج البلاغة إنموذجاً

المدرس المساعد: مجيب سعد

(جامعة الكوفة - مركز دراسات الكوفة)

المقدمة

يشهد البحث اللغوي تطـــورًا مـــذهلاً في عصـــرنا، إذ تعددت النظريات والاتجاهات والمناهج التي تهتم باللغـــة وأنظمتها وخصائصها، ويهدف ذلك إلى تقديم أوضـــح تفسير ممكن لمختلف الظواهر اللغوية من أجـــل خدمـــة الإنسان.

ومن أحدث المناهج المقترحـــة لدراســـة اللغـــة هـــو (اللسانيات النصية)، وهو منهج يتميز اتجاهه نحو النص باعتباره البنية الكبرى للغة ومن ثمَّ تجاوز حدود الجملة.

ويدين هذا المنهج ــ اللسانيات النصيةــ بوجـــوده إلى التطور الحاصل في مجالين مختلفين ولكنـــهما متقاربـــان كثيرًا:

أما المجال الأول فيتمثل بظهور ما أطلق عليه تون. أ. فان دايك: (علم متداخل الاختصاصات) يهدف أساساً إلى تحليل عام للنصوص.

فـ (اللسانيات النصية) تكون بذلك جزءًا من نزعة طغت على التوجه العام للأبحاث الحاصلة في العلوم المجاورة للدراسات اللغوية والأدبية ولعلَّ أهمها «علم النفس والاجتماع مثلما يكون الشأن في علم الاتصال الجماهيري».

ويذهب اللغوي الأمريكي روبرت دي بوجراند إلى تعميمها إلى كافة العلوم ذات الصلة باللسانيات «كعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة وعلوم الحاسب الآلي والسيمو طيقا والتربية والدراسات الأدبية».

ويعدُّ منهج تحليل المحتوى أو تحليل المضمون في علم الاجتماع ومنهج تحليل المحادثة أو الحوار في علم النفس وعلم الطب النفسي والعلاج النفسي الأكثر تبلورًا بين مناهج التحليلات النصية التي عرفتها العلوم الإنسانية والاجتماعية، كما إنها شديدة الارتباط بمنهج التحليل النصي للأدب.

وهذا ما ذهب إليه فان دايك الذي يـــرى أنَّ التحليـــل اللغوي للنص الأدبي ما هو في الحقيقة إلا تيار مواكب لما تعرفه العلوم المجاورة من تطور .

أما المجال الثاني الذي تدين له علم الدراسات النصـــية بوجودها فهو التطور الذي شهدته الدراسات اللســـانية الحديثة والمعاصرة، ويتمثل هذا التطور بالخصـــوص في نقل الاهتمام من الجملة إلى النص.

إذ أن «كثيرًا من الظواهر التي تعالج في اطـــار الـــنص كوحدة كبرى هي في حقيقة الأمر قد كانت محور كثير من البحوث النحوية التي كانت تعدُّ الجملة أكبر وحدة في التحليل، غير أن النص يراعي في وصـــفه وتحليلاتـــه عناصر أجرى لم توضع في الاعتبار من قبل، ويلجـــأ في تفسيراته إلى قواعد دلالية ومنطقية إلى جوار القواعـــد التركيبية، ويحاول أن يقدم صياغات كلية دقيقة للبنيـــة النصية وقواعد ترابطها».

وقد نبع هذا الإحساس من منطق أن نحو الجملة ليس كافياً لدراسة جميع الأبنية اللغوية، فبغضِّ النظر عـــن إنَّ النصَّ يمكن أنْ يكون مفردًا أو جملةً فهـــو في الغالـــب

متوالية من الجمل غير إنَّ بنيته ليست صورة مكبرة عن بنية هذه الجمل كما إنَّ معناه ليس هو معاني هذه الجمل مجتمعة «ويمكن أن نلاحظ بوضوح أنَّ معاني جمل بعض النصوص لا علاقة له بالمعنى العام للنص ومع هذا قد تكون هذه الجمل محورية في بنية النص ومعناه، وينطبق الأمر تمامًا على الجملة فهي ليست مجموعة من الكلمات فحسب ولكنها علاقة هذه الكلمات بنيويًا».

واستنادًا إلى هذا القول يمكننا أنَّ نفرَّق بين نحو الجملة ونحو النص، فـ «نحو الجملة يهتم بما هو افتراضي وشكلي بينما نحو النص أشمل وأدق فهو يتسع لكل الظواهر التركيبية بكل تمظهراتها عبر كامل النص وما ينتج عنه من ظواهر نصية جزئية وأبنية تقابلية وتطابقية وظواهر حذف وإسناد واستبدال والتي تشكل في الأخير الوحدة الكلية للنص».

وقد ذكر الألسنيون كثيرًا من الفروقات بين نحو الجملة ونحو النص لا يسع المجال لذكرها جميعاً هنا ونكتفي بما ذكره روبرت دي بوجراند في تمييزه بينهما قائلا: إنَّ

النص نظام فعال والجملة نظام افتراضي. والنص يتصل بموقف يكون فيه.

أما الجملة فهي تتابع العناصر لتصبح الجملة جملة.

والجملة كيان قواعدي خالص يتحدد على مستوى النحو أما النص فحقه أن يعرف المعايير الكلية الكاملة النصية كما إنَّ الحالات النفسية والأعراف الاجتماعية تجدها لصيقة بالنص ومفتقدة في الجملة.

ثم إنَّ نحو الجملة يحدد مجموعة القواعد للدراسة محاولاً إتباعها من خلال النماذج التي يمكن أنْ تصنع من أجل ذلك أما نحو النص فيدرس النص لاستخلاص القواعد منه لا من خارجه، و«لهذا فقضيته الكبرى هي تحديد القواعد الكبرى التي تعترف للنص بنصيته».

فالفروق الجوهرية الموجودة بين الجملة والنص جعلت لسانيات النص تحدد موضوعها ومنهجها وأهدافها فجعلت من النص هدفاً للدراسة والبحث معتمدة على الأدوات التركيبية والمعجمية فـ «الترابط النصي والآليات الدلالية والتداولية التي تؤدي إلى انسجام النص.

والنص يشتمل على البنية التركيبية (السطحية)، والبنية الدلالية (العميقة) والبنية المنطقية (علاقات القضايا) والبنية الموضوعية (البنية الكبرى) كل هذه البنى تبرز النص في حالة من الترابط والتماسك بحيث تجعل القارئ يتفاعل معه أخذاً وعطاء معتمداً على السياق في عملية التفسير والتأويل».

فيكون النص كما يراه فان دايك: «بنية سطحية توجهها وتحفزها بنية دلالية ويتصور البنية العميقة للنص كماً منظماً من التتابعات فهي تعرض البنية المنطقية المجردة للنص وتعد البنية

العميقة الدلالية للنص بالنسبة له نوعاً من إعادة صياغة مجردة تتحدد في النواة «البنية الموضوعية للنص».

فلفك شفرة النص عامة وشفرة نهج البلاغة خاصة ارتأى الباحث أن ينحو منحى علماء لغة النص في تحليل الخطبة (١١)، والخطبة (٦٦)، والخطبة (١٢٨) تحليلاً نصياً معاصراً من خلال النظرة الكلية لهن بعدِّهن وحدة كاملة ثم الحكم على تماسكهن والأدوات التي أسهمت

في تحقيق هذا التماسك وإثبات وجود التواصل بين منتج النص والنص ومتلقيه.

مدخل

يلاحظ أنَّ في كلِّ نص ــ في الغالب ــ أمراً جوهرياً يظهر مضمونه في أرجاء النص كلها. وكذلك توجد عناصر مهمة في كلِّ نصٍّ، يستطيع القارئ أن يحددها تبعا لمعارفه واهتماماته.

هذا الأمر الجوهري أو العناصر المهمة تسمى (البنية الكبرى) وتعرَّف بأنها: (التركيب المقدر الذي يفسر أو يعلل تنظيم النص والخطاب».

وبناءاً على هذا «يعتمد تفكيك النص إلى الوحدات المكونة له على الإدراك السليم لبنيته العليا، مما يعدُّ شرطاً ضرورياً لتحليل علاقاته وضبط خواصه» .

معنى هذا أنَّ تحليل النص يبدأ من معرفة الموضوع الأساس (البنية الكبرى) الذي يعالجه النص، ثم نلاحظ الجوانب المحورية الأساسية أو الشاملة (الأبنية الصغرى) الموظفة لإبراز الموضوع الأساس ثم الربط بين البنية الكبرى والبنى الصغرى من خلال ملاحظة وسائل

التماسك المتمثلة بـــ الإحالة والتكرار والحذف والتناص والعطف والإشارة والإبدال وغيرها من العناصر النصية التي يُحْدِث تواجدها في النص الترابط النصي فيصـــبح النص كالكلمة الواحدة من حيث الرسوخ والاســـتقرار شكلياً ودلالياً.

واتكاء النص على (بنية كبرى) تعدُّ أساساً لإنشاء النص يمكن ملاحظته في صور جلية في جميع الخطب التي نظَّـــر لها إمام الموحدين وأمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) في خطاباته للمسلمين، من ذلـــك خطاباتـــه في الحرب وتعليم جيشه فنون القتال وحثهم على الجهاد.

إذ اقتصرنا في بحثنا هذا على ثلاث خطـــب مـــن نهـــج البلاغة، الأولى كانت خطابا مباشراً لابنه محمـــد بـــن الحنفية لَّما أعطاه الراية في يوم الجمل وهي الخطبة (١١)، والخطبة الثانية فالمشهور فيها أنها كانت لأصحابه ليلـــة الهرير وهي الخطبة رقم (٦٦)، أما الخطبة الثالثة فهـــي كما ذكر شرَّاح نهج البلاغة انها وردت قبـــل معركـــة صفين وفيها حثَّ (عليه السلام) أصحابه على القتـــال وهي الخطبة رقم (١٢٤).

التي تبين أن البنية الكبرى لها هي:

(أساليب القتال وطرق وأخلاقيات مواجهة الخصم في المعركة) .

ورعآية للإيجاز فإننا سنقتصر في تحليلنا لهذه الخطب بإعتمادنا على اربعة معايير من معايير التماسك النصي وهي كما يأتي:

أولاً: الجملة الأولى:

فللجملة الأولى أهمية كبيرة في التحليل النصي «فالإستهلال يحتل مكانة بارزة من حيث الأهمية من ناحية ومن حيث علاقته ببقية أجزاء النص من ناحية أجرى، وتحكمه كذلك في هذه الأجزاء».

ففي الغالب يركز منتج النص كل جهوده في هذه الجملة، إذ يكون ما بعدها تفسيرا لها، وتمثل المحور الذي يدور عليه النص فيما بعد، إذ تتعلق الأجزاء الباقية من النص في الجملة الأولى بوسيلة ما .

وقد أدرك القدماء أهمية الجملة الأولى في النص بل الكلمة الأولى في الجملة وهذا ما لمسناه في تفسيرهم لبدايات السور القرآنية ولاسيما ما يخص الأحرف المقتطعة في أوائل بعض السور القرآنية.

ولم يكن موقف المحدثين مخالفاً لموقف القدماء بل أكدوه، فيذكر أحد الباحثين المحدثين «أن الجملة الأولى في أي نصٍّ تمثل معلماً عليه يقوم أللاحق منها ويعود.

وداخل تلك الجملة نفسها يمثل اللفظ الأول منها معلماً تقوم عليه سائر مكوناتها، فالمسند يقتضي المسند إليه، وهذا الأخير يقتضي الأول وهما معاً يقتضيان متممات، فهذه حلقة أولى تنتهي دون أن تنغلق على نفسها، فهي مستقلة من حيث التركيب، ولكنها منطلق في كل شيء لما يأتي بعدها من حلقات هي جمل أجرى».

ونجد مصداق هذا في الجملة الأولى التي افتتح بها الإمام (عليه السلام) خطبته موجهاً بها ابنه محمد بن الحنفية لَّما أعطاه الراية يوم الجمل قائلا: «تزول الجبال ولا تزُل».

إذ يورد «خبرا يفهم منه معنى الشرط، وتقديره : إن زالت الجبال فلا تزل انت» . فنجده في هذه الجملة «أمره بالثبات في الحرب وعدم الزوال، يعني: إن الجبال إذا زالت عن مكانها لا تّزُل انت عن مكانك، وهذا مبالغة في الثبات والاستقامة ونهي عن الفرار».

وفي هذا إشارة إلى أهم مسألة في ميدان القتال وهي الاستقامة والصمود التي لا يمكن تحقيق النصر بدونها. وهذا ما أكده الإمام (عليه السلام) في بداية الأمر؛ وذلك لما كان للراية من أهمية خاصة في ميدان القتال، ولدورها الفعال في ارتباط الصفوف والتحامها، فحولها يلتف المقاتلون؛ لإعادة تنظيم صفوفهم وشن الحملات.

وإن سقوط الراية يؤدي إلى اضطراب العسكر وربما إلى انهياره، «ولهذا ما انفك الإمام (عليه السلام) عن التأكيد في وصاياه بحفظ الراية حيث أكد من جهة ضرورة ثبوت الراية وان حماتها من أشجع الأفراد».

إذ قال(عليه السلام)في خطبة ١٢٤: «ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم والمانعين الذمار منكم».

ومن جهة أجرى يوصي حملة الراية بعدم التخلي عنها، ومراقبتها من جميع الجهات فلا يتخلفوا عنها ولا يتقدموا عليها، إذ قال (عليه السلام): «لا يتأخرون عنها فّيُسْلِموها، ولا يتقدمون عليها فّيُفردوها».

فإن «انتصاب الراية دليل على القدرة وسبب قوة وعزيمة المقاتلين وحلقة اتصالهم مع بعضهم».

فلما كانت الراية لها هذه الأهمية في المعركة فهذا يعني أنَّ حامل الراية لا بدَّ أنْ يتمتع بالسمات والصفات التي تؤهله لحملها.

فنجد الإمام (عليه السلام) يوضح «خطوات الإقدام لتكون الروح المعنوية بأرفع حال لها لدى المقاتل وبمستوى عمق الثبات لنفسي».

وأول هذه الصفات هي الثبات وعدم التزلزل، وبذلك «تضمنت الجملة الأولى الأوامر الكلية بشأن المقاومة والصمود في ميدان الحرب» .

ثم يبين الإمام (عليه السلام) الطرق التي يكتسب من خلالها حامل الراية الثبات والصمود أمام ما يعصف به من لهوات المعركة، وهذا ما سنلاحظه في المعيار الثاني من معايير التماسك النصي.

ثانياً: الإحالة :

للعلاقات الدلالية المبنية في النص الأثر الأكبر في عملية الانسجام النصي من خلال تحقيقها مبدأ الاستمرارية

الدلالية إذ أن جمل النص تخضع لعملية بناء منظمة ومترابطة تركيبياً ودلالياً، كل جملة تؤدي إلى جملة.

وقد تحقق هذا التعالق بواسطة أدوات ووسائل لغوية منها (الإحالة) التي تعد من العناصر المهمة في تحقيق الترابط النصي.

هذا الترابط المنظَّم بين الجمل يعرف بالاتساق؛ وهو الذي يضمن تماسك النص وتمييزه عن اللا نص.

وقد ساهمت في عملية الاتساق مجموعة من الوسائل والأدوات النحوية والدلالية وهذا ما جعل الاتساق يكون تركيبياً ودلالياً.

فالاتساق التركيبي تمَّ عبر عملية الوصل بين الجمل إما بالعطف بـ (و ، أو، ثم، الفاء)أو الأسماء الموصلة (الذي، التي، الذين) وحروف التفسير (أي، أعني، أقصد) فيتحقق الربط عبر عملية الوصل بين متواليات النص.

وأما الاتساق الدلالي فيتحقق بالإحالة وهي علاقة دلالية بين عنصر محيل وعنصر محال إليه.

والإحالة عند روبرت دي بوجراند «العلاقة بين العبارات والأشياء والأحداث والمواقف في العالم الذي يدل عليه بالعبارات ذات الطابع البدائلي في نص ما».

وترتبط الإحالة بالعلاقة بين الكلمات والعبارات من جهة وبين الأسماء والمسميات من جهة أجرى . والإحالة تكون على نوعين:

١ــ إحالة داخلية: تتم داخل النص؛ أي بين عباراته وكلماته، «فالإحالة الداخلية تتطلب من المستمع أو القارئ أن ينظر داخل النص للبحث عن الشيء المحال إليه».

ولا يخفى ما في الإحالة الداخلية من دور في إحداث التماسك النصي، إذ يتعلق الأمر بارتباط جزء بجزء آخر واعتماده عليه في تحديد ماهيته.

والإحالة الداخلية تكون على نوعين:

أ ــ إحالة قبلية: إذا كانت تحيل إلى عنصر سابق.

ب ــ إحالة بعدية: إذا كانت تحيل إلى عنصر لاحق.

٢ــ إحالة خارجية تقوم على وجود ذات المخاطب خارج النص.

وتعدُّ الإحالة من أكثر الظواهر اللغوية انتشارا في النصوص، فلا تكاد تخلو منها جملة أو نص؛ لأنها تقوم على التحكم في مسارات الرسالة المبثوثة.

وفي بحثنا هذا سنقتصر على نموذج واحد لكل نوع من أنواع الإحالة وعلى النحو الآتي:

١ـ الإحالة الداخلية (القبلية):

إن رصد حركات الإحالة في النص ومعرفة أدواتها تعدُّ من أهم مفاتيح المحلل اللغوي للولوج إلى بنية النص وتحليله، ومن ذلك حركة الضمائر على سطح النص وتنوعها وتحولها واحتواء بعضها البعض وما ينتج عن ذلك من حركات دلالية في النص نفسه تعدُّ انعكاسا لحركة الضمائر وكذا الجمل المحورية وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة. «إذ تختصر الإحالة العناصر الاشارية وتجنب مستعملها إعادتها وتكرارها».

وتتجسد الإحالة الداخلية القبلية في قول الإمام (عليه السلام) في تتمة خطبته لابنه محمد بن الحنفية:

«تزول الجبال ولا تزل، عض على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، ارم ببصرك أقصى

القوم، وغض بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه».

فالبنية السطحية لهذه الجملة تظهر النص بصورة مفككة من السطح لكننا لا نلبث أن نثبت أن وراءه بنية عميقة محكمة في تماسكها تفسر تشاكل الاجزاء وتضمن اتساقها «فقد نجد عددا من الجمل المتراصة لا يجمعها اطار شكلي أو رابط لفظي ولكن حين النظر إلى الاطار الدلالي الذي يتحكم في هذه الجمل المتجاورة يتبين الخيط الذي يظم حبات هذا العقد فيما بينها وهذا يرتبط بأدوات التماسك الدلالية وبالرجوع إلى السياق المحيط بالنص». فمن خلال ذلك تدرك الصلة بين الجمل التي لا تبدو بينها صلة.

ومن وسائل التماسك الدلالية (الضمير)، «فليست وظيفة الضمير هي الإحلال فقط أو التعويض عن الاسم الظاهر ولكن تتعداها إلى كونه رابطاً يحقق التماسك النصي، وله أهميته القصوى في التحليل النصي».

فمن خلال عود الضمير ندرك الصلة بين هذه الجمل والجملة الأولى«فمن الممكن أنْ يأتي المسند إليه في الجملة

الأولى ثم تأتي المسندات المتعددة في الجمل التالية للجملة الأولى».

من ذلك قوله تعالى: «الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ الْبَيَان»[1] فالمسند إليه هو (الرحمن) سبحانه وتعالى والمسندات تتمثل في (علم ، خلق، علمه) وهذه الرابطة نحوية دلالية فالمسند إليه في جمل النهج هو ذات المخاطب في الجملة الأولى وهو: محمد بن الحنفية، إذ اشترط النصيون في مثل هذه الجمل التطابق الإحالي أي: أن يكون الشخص نفسه الذي تتحدث عنه جميع الجمل، واشترطوا أيضا تعالق الوقائع التي تشير إليها الجمل. ولما كانت هذه الجمل تحيل إلى ذات المخاطب في الجملة الأولى وقد توافقت الوقائع التي تشير إليها هذه الجمل مع الجملة الأولى فقد تحقق التماسك النصي بين هذه الجمل وصار لهذه البنى السطحية بنية عميقة محكمة في تماسكها وتفسر تشاكل الأجزاء وتضمن اتساقها وانسجامها.

---

١ . الرحمن، ١-٧.

فالمسند إليه هو ذات المخاطب في الجملة الأولى والمسندات (عضَّ، أعر، تِدْ، إرم، غض، إعلم) جميعها ترجع إلى المسند إليه في الجمة الأولى فرغم غياب الروابط الشكلية (اللفظية) الا أن التجاور بين متتاليات تتمتع ألفاظها بالانتماء إلى حقل دلالي واحد تجعل الترابط العام يبدو واضحا بما يسميه جوهين كوهين: «بالربط الضمني في مقابل الربط الواضح».

فالبنية العميقة لهذه الجمل هي : الثبات في المعركة وعدم التزلزل أو النكوص.

وهذا الأمر يحتاج إلى توافر عدة أمور بيَّنها الإمام (عليه السلام) بجمل مختصرة تحمل دلالات مكتنزة منها قوله (عليه السلام): «عضَّ على ناجذك».

التي ستظهر دلالاتها في تحليلنا للمعيار الثالث من معايير التماسك النصي وهو (التكرار).

ثم قال له(عليه السلام): «أعر الله جمجمتك»، أي: «استعد للتضحية والفداء والشهادة في سبيل الله، فإن الاستعداد أساس الشهادة والاستبسال». وقد ذهب بعض شرَّاح النهج «أن في ذلك إشعار له أنه لا يقتل في

تلك الحرب لان العارية مردودة، ولو قال له: بـــع الله جمجمتك، لكان ذلك اشعار له بالشهادة فيها».

ثم يواصل الإمام(عليه السلام) ذكر الوسائل التي تمكـــن المقاتل من الثبات في المعركة بجمل مقتضبة وهو يعـــضُ ابنه قائلا له: «تد في الأرض قدمك» علما أنـــه (عليـــه السلام) وعضه في الجملة الأولى بقوله :«تزول الجبـــال ولا تزل» فهل هذا يعني أن هناك فرقاً في دلالة الجملتين أم انهما يدلان على دلالة واحدة ؟ وهذا ما سنوضـــحه لاحقا. ثم قال له (عليه السلام): «ارم ببصرك أقصـــى القوم، وغض بصرك» وهنا قد يظن المتلقي لأول وهلـــة أن منتج النص قد وقع في تناقض ــ حاشاه ــ إذ كيف يرمي ببصره ويغضه في آن واحد؟ وهذا ما ســـنبينه في تناولنا للمعيار الثالث من معايير الماسك النصـــي وهـــو (التكرار).

ثم يختم الإمام(عليه السلام) خطبته بقوله: «واعلـــم أن النصر من عند الله سبحانه » .

التي سنقف على كنهها في تناولنا للمعيار الرابـــع مـــن معايير النصية وهو التناص.

٢ـ الإحالة الخارجية:

ذكرنا آنفا أن الإحالة وسيلة لغوية مهمة من وسائل تحقيق التسلسل أو التتابع الخطي للجمل في المستوى التركيبي. فالعناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها بل تعتمد على التأويل، إذ لابد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها، «وينبغي أن يكون هناك تطابقا في الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه».

ولَّما كانت الإحالة الخارجية تحيل إلى ما هو خارج النص ظهرت الحاجة إلى إعمال الفكر، إذ أن من طبيعة التماسك ارتباطه بالتفكير؛ ذلك لأنه«أداة و وسيلة أساسية للتفكير البشري»، ولوجود صلة قوية بين اللغة والتفكير.

وهذا ما يتجسد في الإحالة الخارجية التي تتطلب من المتلقي الالتفات إلى خارج النص حتى يتمكن من معرفة المحال إليه من بين المواقف والأحداث والملابسات المحيطة بالنص.

أي ان الإحالة الخارجية تتمثل في «الأنماط اللغوية التي تشير إلى الموقف خارج اللغة غير ان الموقف يشارك الأقوال اللغوية».

فهي عملية ربط «ما هو لغوي وداخل النص مع ما هو لغوي وخارج النص».

ومن البديهي أنَّ التحديد السليم لمعنى كلمة ما داخل التركيب لابد أن يمرَّ عبر مراعاة السياق الذي وردت فيه، فمن الطبيعي أنْ يمثل السياق دوراً بارزًا في تحديد معنى النص ومن ثَمَّ تماسكه.

ويكتسي السياق أهميةً بالغةً في اثناء التحليل النصي، لدوره في تحديد مضمون النص وكذا لأن «بعض المواقف الاتصالية تحتاج إلى معرفة بالسياق لفهم وجه الربط بين المتتاليات الجملية». فالسياق يعين المحلل في تحديد معنى الكلمة «وتحديد معنى الكلمات يؤدي إلى بيان دلالة الجمل ومن ثم يحدث التماسك الدلالي».

ولهذا فإننا «حينما نقول إن لإحدى الكلمات أكثر من معنى في وقت واحد إنما نكون ضحايا الانخداع إلى حد

غير قليل، إذ لا يطغو في الشعور من المعاني المختلفة التي عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعنيه السياق».

ونجد مصداق هذا في قول الإمام (عليه السلام) وهو يشير إلى طائفة من فنون القتال: «وعليكم بهذا السواد الأعظم، والرواق المطنَّب، فاضربوا ثبجه فإنَّ الشيطان كامن في كسره» .

١ــ لفظة (السواد) تحمل دلالة عامة تنطبق على أكثر من مصداق ولا يمكن الاقتصار على معنى اللفظ وحده بالتوصل إلى دلالة المقصود منها. وبهذا ظهرت الحاجة إلى سياق النص لتحديد المراد من المشار إليه بهذه اللفظة.

فالإحالة في هذا الاستعمال إحالة خارجية، إذ إن المراد من (السواد) هنا عسكر معاوية وقد توافرت في النص أكثر من قرينة تثبت ذلك منها وصفه بـ (الأعظم)، وعطف عليه جملة (الرواق المطنب) التي تعني الخيمة الكبيرة ذات الأطناب، فضلا عن ذلك عود الضمير عليه في كلمة (ثبجه) في قول الإمام (عليه السلام): «فاضربوا ثبجه» التي تعني وسط الشيء.

فهذا يدل على أنَّ المراد من (السواد) هو تجمهر القادة والجند حول خيمة معاوية.

فـ (السواد الأعظم) هنا كناية عن التجمع الكبير الذي يبدو اسودا من بعيد . وفي هذا يأمر الإمام (عليه السلام) جيشه بالإطاحة والإجهاز على خيمة معاوية.

وهنا يبرز الدور القيادي للإمام (عليه السلام) وتمرسه بالمعركة وخبرته بالفنون القتالية وهو يأمر جيشه بالهجوم على قلب العدو ومركز قيادته.

إذ أن الهجوم على العدو وبخطى متعثرة مراعية الحذر والاحتياط باحثة عن مواطن الضعف في الخصم للإجهاز عليه مجتنبة مواطن القوة منها يؤدي إلى اشتداد شوكة العدو وقوة عزيمته في التمكن من الخصم. «وعلى العكس من ذلك لو كانت الحملة موجهة إلى قلب عسكر العدو لانهارت روحية العدو وتحطمت معنوياته».

إذ أن الهجوم على قلب العدو ومركز القيادة فيه يكشف عن مدى القوة والاقتدار. فلله درك يا أمير المؤمنين وأنت قائد في الحرب وواعظ للجند وباذل نفسك في مرضاة الله.

٢ــ لفظة (الشيطان) في قول الإمام(عليه السلام): «فإن الشيطان كامن في كسره، قد قدم للوثبة يدا وأخَّر للنكوص رجلا».

فلفظة (الشيطان) بمعزل عن النص تعني الشيطان الحقيقي(ابليس) بيد أن المراد منها في هذا النص غير الشيطان الحقيقي بل انها تحيل إلى شخص آخر مارس الأعمال والأفكار الشيطانية التي كادت تودي بحياة الدين وتميت السنة وتحي البدعة.

وما يدل على ذلك عدة أمور منها :

١ــ أدوات الربط الشكلية والدلالية كعائدية الضمائر المتمثلة بـ (الهاء) في لفظة (كسره) فإنها تحيل إحالة داخلية قبلية إلى (الرواق المطنب) التي تعني (الخيمة) فهو مستقر فيها. فضلا عن وصفه ببعض الصفات الإنسانية من اليد التي يبطش بها إذا انتصر جيشه على جيش الإمام(عليه السلام)، و(الرجل) التي يهرب بها إذا اندحر جيشه.

٢ــ السياق الذي وردت فيه لفظة (الشيطان) في هذا النص، إذ أن الإمام (عليه السلام) أمر الجيش أن يجهز

على الخيمة التي تحتل مركز الصدارة في جيش العـــدو وان يضربوا من هو كامن في وسطها.

٣ــ إن لفظة (الشيطان) قد تكررت في النهج في أكثر من مورد ولم تكن مشيرة إلى (الشيطان الحقيقي، وهـــذا ما نلمسه في قوله (عليه السلام): «اتخـــذوا الشـــيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فبـــاض وفـــرخ في صدورهم، ودب ودرج في حجورهم؛ فنظر بأعينـــهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطـــل، فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطـــل على لسانه».

فإنها لا تشير إلى الشيطان الحقيقي وانما إلى شيطان مـــن شياطين الإنس وما أظنه عنى به إلا معاوية.

ومثل هذا نجـــده في قوله(عليـــه الســـلام): «الا وإن الشيطان قد ذمر حزبه، واستجلب جلبه، ليعود الجـــور إلى أوطانه، ويرجع الباطل إلى نصابه». وفيهـــا صـــرح القطب الراوندي أن هذه الخطبة متعلقة بمعركة صـــفين وقد عنت عباراتها معاوية .

وبهذا يمكن الرد على رأي من يرى أن المراد من الشيطان هنا: الشيطان الحقيقي؛ لأن الإمام(عليه السلام) أمر جيشه بالإجهاز على الخيمة وضربه في ثبجه، فلابد أن يكون المضروب شخصيا له صفات مادية محسوسة يمكن أن يرى ويكون له جسم كي يضرب في وسطه.

ونرد على رأي من يرى أن المراد منه عمرو بن العاص؛ لأنا وإن ضربناه في ثبجه وأردیناه فإن هذا لا ينهي القضية؛ لأن القائد المنفذ باقٍ على قيد الحياة وهو معاوية.

وهنا تظهر حنكة الإمام (عليه السلام) وتكتيكه في الحرب وطول باعه فيها وهو يوجه جيشه بالإجهاز على قلب العدو ومركز القيادة فيه؛ الذي يؤدي إلى حسم المعركة بتحقيق النصر السريع على العدو وبأكثر النتائج واقل الخسائر.

ثالثاً: التكرار

لَّما كان التحليل النصي في جوهره يعدُّ بحثاً عن المضمون من أجل النص نفسه واعتماداً على النص

ومكوناته لذا فقد استولت فكرة أداء التكرار لوظائف دلالية معينة على اهتمامات علماء النصية؛ وذلك بعدِّ التكرار ملمحاً اسلوبياً بارزاً يعيننا على فك شفرة النص .

وبناءاً على هذا لقي التكرار عناية فائقة من قبل علماء لغة النص فأعتبره تون فان دايك وسيلة من وسائل التماسك النصي. وقد جعل زتسيسلاف واورزنياك «التكرارات أو الإعادات لعناصر وعلاقات لغوية ضمن التشكيل النصي وثيقة الصلة» ومن جهة أجرى «يمكن أن يصير الاسم اسماً مسيَّداً في النص أي: موضوع النص».

ويرى دي بوجراند أن «التكرار يبقى محصوراً في إعادة وحدة معجمية بعينها»، وهو ما يذهب إليه هاليداي ورقية حسن في كتابهما (الاتساق في الانجليزية).

وغير بعيد عن هذا الاتجاه سارت دراسات الباحثين النصيين العرب، فيذكر د. سعيد بحيري أن «الإحالة التكرارية هي الإحالة بالعودة، وتتمثل في تكرار لفظ أو عدد من الألفاظ في بداية كل جملة من جمل النص قيد

التأكيد». وهو الرأي الذي أكده د.الزهر الزنـــاد ود. جميل عبد المجيد.

وقد عرف د.الفقي التكرار على أنه: «إعادة ذكر لفظ أو عبارة أو جملة أو فقرة وذلـــك بـــاللفظ نفســـه أو بالترادف وذلك لتحقيق أغراض كثيرة أهمهـــا تحقيـــق التماسك النصي بين عناصر النص المتباعدة».

فالتكرار يلعب دوراً مهماً في سبك النص وتحديد معناه واستكناه مضمونه؛ وهذا بناءاً على أن التكرار إلحـــاحٌ على جهة هامة من العبارة، يقول ناصر يعقوب: «ويمثل تكرار التركيب اللغوي بؤرة دلالية مهمة في النص».

ويعتمد التكرار في إحداثه للتماسك على عنصر آخر من عناصر التحليل وهو الإحالة إلى سابق، وهنا تظهر فائدة إصرار علماء النص على وحدة المرجع في المكرر، يقول د. جميل عبد المجيد: «والمقصود بالتكرار هنـــا: تكـــرار لفظتين مرجعهما واحد، فمثل هذا التكرار يعدُّ ضرباً من ضروب الإحالة إلى سابق بمعنى أن الثاني يحيل إلى الأول ومن ثم يحدث التماسك بينهما وبالتـــالي بـــين الجملـــة والجملة».

إذن فتكرار لفظ معجمي يحيل إلى لفظ آخر قد يكون في جملة أخرى وقد يكون في مقطع آخر، ونظراً لوحدة الشحنة الدلالية فإنَّ هذا التكرار يربط الجملة الثانية بالأولى أو المقطع الثاني بالأول فيه دليل على الاستمرار والانتماء إلى النص نفسه، وإن ارتفاع معدل التكرار يزيد من درجة التماسك وتحقيق العلاقة المتبادلة بين العناصر المكونة للنص.

وقد ذكر النصيون أكثر من نوع للتكرار يمكن ايجازها بالنحو الآتي:

١ــ التكرار التام، وهو نوعان:

أــ تكرار مع وحدة المرجع، أي: يكون المسمى واحداً.

ب ــ تكرار مع اختلاف المرجع(أي: يكون المسمى متعدداً).

٢ــ التكرار الجزئي: ويقصد به تكرار عنصر سبق استخدامه ولكن في فئات وأشكال مختلفة، ومن أشكال التكرار الجزئي الاستبدال ويعني: استبدال مفردةً بمفردةٍ أخرى.

وقد نال التكرار حظاً وافراً في خطب الإمام(عليه السلام) وحكمه ورسائله، ويمكن ملاحظته بما يلي:

١ــ التكرار التام:

ونلحظ فيه تكراراً للفعل (عَضَّ) الذي تكرر ذكره في ثلاثة خطب، كلها بصيغة الأمر، اثنان متصلان بواو الجماعة(عَضُّوا) وفاعلهما ضمير المخاطب الغائب (انتم)، وواحد مجرد (عَضَّ) وفاعله ضمير المخاطب الغائب (أنت) ومدخولهما في الحالات الثلاثة هو نفسه يتكرر ولكن بصياغات مختلفة:

١ــ (عَضَّ على ناجذك)

٢ــ (عضوا على النواجذ، فإنه انبى للسيوف عن الهام)

٣ــ (عضوا على الأضراس، فإنه انبى للسيوف عن الهام)

يتضح من خلال تتبع الاسم المجرور في الحالات الثلاث أنه واحد وهذه حالاته المختلفة، فـ (النواجذ) ومفردها: (ناجذ) تعني أقاصي الأضراس في الفم، وهي أربعة أضراس تنبت بعد أن يشب الغلام، وتسميها العامة :أضراس العقل.

ثم يستعمل الإمام(عليه السلام) أحد أنواع التكرار الجزئي وهو الاستبدال أو الترادف فيورد بدل لفظة (النواجذ): (الأضراس) ومفردها: (ضرس)، وهي الأسنان الطاحنة.

وهناك فرق في الدلالة بين اللفظتين، فـ (النواجذ) دلالتها خاصة على الأضراس الأربعة التي تنبت في أقصى الفم بعد أن يشب الغلام أمَّا (الأضراس) فدلالتها عامة بكل ما يتصف بالقوة من الأسنان؛ لان لفظة (ضرس) كما يقول ابن فارس: «يدلُّ على قوة وخشونة». وهنا يبين لنا الإمام(عليه السلام) طريقة فذة في مواجهة الخصم تتضمن فائدتين:

الأولى: إنه يزيل الخوف والقلق والاضطراب ومن هنا يعضُّ الإنسان على أسنانه في مواطن الخوف؛ ليهدأ وتسكن فورته.

الثانية: إنَّ العاضَّ على نواجذه ينبو السيف عن هامته نبواً، «وهذا مما يساعد التعليل الطبيعي عليه؛ وذلك انه إذا عَضَّ على ناجذه تصلبت الأعصاب والعضلات

المتصلة بدماغه وزال عنها الاسترخاء فكانت على مقاومة السيف أقدر وكان تأثير السيف فيها أقل».

وهذا ما يبينه الإمام (عليه السلام) في الخطبة (٦٦) من قوله: «وعضوا على النواجذ فإنه أنبى للسيوف عن الهام».

ويظهر ملمحاً آخر للتكرار نلمسه في قوله (عليه السلام) لابنه محمد بن الحنفية: «غُضَّ بصرك».

وفي قوله(عليه السلام) في الخطبة (١٢٤): «وغُضُّوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب»

فالفعل (غض) جاء مرتين بصيغة الأمر، الأولى: جاء مجردا دالا على الإفراد والثانية جاء مجردا دالا على الجمع. ويتضح من خلال تتبع المفعول به إنه واحد في كلا الحالتين وهو (البصر).

وهنا يخوض الإمام (عليه السلام) برفع معنويات جنده في ساحة المعركة فيمنحهم الثبات والصمود تجاه العدو؛ وذلك لأن أدنى اضطراب في ميدان القتال أمام العدو إنما يكشف عن الضعف والعجز، وهذا ما يجعل العدو في مطمع من اقتحام الميدان واللجوء إلى الهجوم.

فالأمير(عليه السلام) هنا يوصي المقاتل بأن ينظر إليهم نظر المستقلُّ لهم غير المبالي بكثرتهم، فيغضَّ بصره عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم لئلا يبرق بصره ويُدْهَش فيستشعره الخوف.

فهذه الوصية تشتمل على بعد نفسيٍّ، إذ كلما كانت روحية الجنود مرتفعة كان الأمل بالنصر أكثر، لذا تجد الإمام (عليه السلام) يبيِّن ذلك في تتمة الخطبة(١٢٤) قائلاً: «وغُضُّوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب».

٢ــ التكرار الجزئي:

ذكرنا آنفاً أن معنى التكرار الجزئي أنْ يعيد المنتج جزءا من الصيغة لا الصيغة كلها، وهذا ما نلمسه في قول الإمام (عليه السلام) في الخطبة(١١) من قوله: «إرم ببصرك أقصى القوم» التي تكررت في الخطبة (٦٦) ولكن بصيغة مختلفة، إذا قال (عليه السلام): «والحظوا الخزر»

وهذا الاختلاف في بنية الصيغتين يعطي دلالة باختلاف النظرة إلى العدو. فهو في الأولى يوصي بأن ينظر المقاتل

إلى العدو نظرة تجعله يحيط بالميدان والسيطرة على حركة الجنود بحيث يتعرف على نقاط الضعف والقوة، فيصيب في الدفاع والهجوم والكر والفر.

وفي قول الإمام(عليه السلام): «والحظوا الخزر» يوصي الإمام(عليه السلام) المقاتل أن ينظر بمؤخر عينه وهي إمارة الغضب، كما تستعمل أحياناً عند عدم الاكتراث، وفائدة مثل هذا الاسلوب في ميدان القتال إشعال وتأجيج نيران الغضب في الباطن بحيث تشحذ كافة القوى الداخلية وتتضاعف طاقة الإنسان وقدرته.

وأن لا ينظر إليه بكامل العين؛ لأن ذلك يدل على الخوف والوهن والعجز الأمر الذي يجعل العدو أكثر جرأة وجسارة في الانقضاض عليه.

ويظهر بذلك أن لا تناقض بين قول الإمام(عليه السلام) في خطبة(١١): «ارمِ ببصرك أقصى القوم، وغُضَّ بصرك».

لأنه كما أوضحت آنفاً «أمره أن يفتح عينه ويرفع طرفه ويحدق إلى أقاصي العدو ببصره فعل الشجاع المقدام غير المكترث ولا المبالي؛ لأن الجبان تضعف نفسه ويخفق قلبه

فيقصر بصره ولا يرتفع طرفه ولا يمتد عنقه، ويكـــون ناكس الرأس غضيض الطرف .

وفي الثانية أن يغض بصره عن بريـــق ســـيوفهم؛ لأن لا تضعف نفسه يصيبه الجبن.

رابعًا: التناص:

يعدُّ التناص واحداً من المعايير التي يُصيَّر بهـــا الملفـــوظ نصاً، وقد بدأت بواكير الالتفات النقدي إلى مصـــطلح (التناصية) مع بداية الثمانينيات بعد الانتشار الســـريع لمفهوم الحوارية الباختيني مع ارهاصـــات تكونـــه مـــع الباحث الروسي(ميخائيل باختين)، وانه قد شهد تطوراً مهماً بظهور كتاب (تطريسات) لجيرار جينيت). ويمكن القول إنَّ ابتداع هذا المصطلح كان على يد البلغاريـــة (جوليا كرستيفيا) في دراستها النقدية معرِّفة إياه بأنـــه: «ترحال للنصوص وتداخل نصي في فضاء نص معـــين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصـــوص أجرى».

أو هو كما ذهب إليه روبرت دي بوجراند «أنْ يتضمن العلاقات بين نصٍّ ما ونصوص أجرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة سواء بوساطة أم بغير وساطة».

والتناصية عند عبد المالك مرتاض«تبادل التأثر والعلاقات بين نص أدبي ونصوص أدبية أجرى». فعبد المالك مرتاض يرى أن التناصية «عبارة عن استبدال للنصوص، ذلك بأن في حيز النص مجموعة من العبارات مأخوذة من نصوص أجرى تتلاقى لتغتدي محايدة».

وقد أشار إلى إن فكرة «تبادل التأثر والعلاقات بين نص أدبي ما ونصوص أدبية أجرى فكرة كان الفكر النقدي العربي عرفها معرفة عميقة».

وقد أكد محمد مفتاح «أن التناص ظاهرة لغوية معقدة تستعصي على الضبط أو التقنين، إذ يعتمد في تمييزها على ثقافة المتلقي وسعة معرفته وقدرته على الترجيح».

ومما يلاحظ أن «كل تعريفات التناص تظهر هذا التفاعل والتعالق والالتقاء والتداخل (اللفظي أو المعنوي) بين نص ما ونصوص أخرى سبقته استفاد منها المراد دراسته».

وقد عدَّ احمد الزعبي مصطلحات (الاقتباس)، (التضمين)، (الاستشهاد) نماذج من التناص يستحضرها الكاتب إلى نصه الأصلي لوظيفة فنية أو فكرية منسجمة مع السياق الروائي سواء أكان هذا التناص نصاً تأريخياً أو أدبياً أو دينياً مشيراً إلى أن الاقتباس إذا كان بلغة النص نفسها التي وردت فيها سُمِيَ (التناص المباشر)، وإن كان ما يقتبس بروحه أو مضمونه عن طريق التلميح أو الإشارة أو الرمز فهو (التناص غير المباشر).

وقد ذكر رجاء عيد (التضمين) وعدَّه الصق من غيره بالتناص . ويراه حاملا لوظائف عدّة، منها توثيق الدلالة أو تأكيد موقف أو ترسيخ المعنى أو لمؤازرة نص رفضاً لمقدمة أو نفياً لمعتقد.

وإذا رجعنا إلى نهج البلاغة وجدنا التناص المباشر والتناص غير المباشر منتشراً في خطبه وعلى النحو الآتي:

١ـ التناص المباشر:

وفيه يلجأ منتج النص في بناء نصه إلى محاورة نصوص أجرى سالفة بعينها لتصبح متضمنة فيه من خلالها يبني القارئ «استراتيجيات قرائية وتأويلية، ومهما اختلفت

آلياتها الاستدلالية والاستقرائية والاستنباطية والفرضية الاستكشافية فإنها تشترك جميعها في اتخاذ المعلوم وسيلة لمعرفة المجهول» بحيث تشكل النصوص نسيجاً نصياً واحداً يتعالق بعضها مع بعض محدثة بناءً متراصاً».

وتتميز خطب الإمام (عليه السلام) ــ موضع البحث ــ بسمة سائدة متمثلة بتناص مفرداتها مع سور القرآن الكريم، وهذا ما نلمسه في قول الإمام (عليه السلام) لابنه محمد بن الحنفية: «واعلم ان النصر من عند الله سبحانه».

هذا الترتيب قي ظهور المفردات يشابه ترتيب ظهورها في قوله تعالى: «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»[1].

وبما انها مرتبطة ومسبكة سبكا محكما في السورة فإنها تنعكس على الخطبة وتعطيها شكلا من الانسباك والاستمرارية. وبذلك فهي تنطوي على نقطة مهمة وأساسية تكون تلخيصاً لما أورده الإمام (عليه السلام) في هذه الخطبة، فهي تنطوي على أبعاد روحية معنوية

---

١ . آل عمران من الآية١٢٦.

تُطَمْئِن النفوس وتحدوها بالتطلع إلى الله مشـــيرة إلى أن العنصر الأساس الذي يقف وراء النصر والغلبـــة إنمـــا يكمن في الصبر والثبـــات، «فالنصـــر لا يســـتند إلى الاسباب والمقدمات الظاهرية بل المهم إرادة الله سبحانه ونصره» .

وهو يوجه ابنه أن يتوكل على الله ويثق بعونه ويســـأله الغلبة، فهو القادر على كل شيء وهو الرحمن الـــرحيم بعباده المؤمنين المجاهدين.

وإذا انتقلنا إلى الخطبة(٦٦) نجد إن قـــول الإمام(عليـــه السلام): «واعلموا انكـــم بعـــين الله» وفيهـــا يرفـــع الإمام(عليه السلام) معنويات جيشه ويوصيهم بالثبـــات في ساحة الوغى وميدان القتال بغية استئصـــال شـــأفة العدو قائلا لهم: «واعلموا انكم بعين الله»، فإذا علـــم الإنسان«أنه بعين سيده القادر على كل شيء والمحيط به فإنه يستلهم منه العزم والقوة وعدم الشعور بالوحدة من جانب ومن جانب آخر يلفت نظره إلى عظم المسؤولية والوظيفة التي ينبغي أن ينهض بعبئها». وبـــذلك فهـــي تتناص مع قوله تعالى في قصة نوح حين أمـــره بصـــنع

السفينة:«وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»[1].

وهو يشير إلى ما كان نبي الله نوح يواجهه من السخرية والاستهزاء وما يرافقه من ضغوط نفسية عندما كان يصنع السفينة ، فتأتي هذه الآية لتشد من عضده وتقوي عزمه مشيرة عليه بأن لا يكترث لهذه الامور ولا يحزن ؛ لأنه يعمل وفق المشيئة الالهية الغالبة .

وهو ذات المعنى الى المحت إليه الآية الشريفة: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا»[2] في إطار رباطة جأش النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عندما تكالبت عليه الأعداء.

ثمَّ نلحظ ظهور هذه المجموعة من الكلمات: (انتم الاعلون، الله معكم، لن يتركم اعمالكم) في قول الإمام(عليه السلام) في الخطبة ذاتها: «فصمداً صمداً حتى ينجلي لكم عمود الحق وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم».

---

١ . هود/٣٧.

٢ . الطور/٤٨.

فبعد أن انتهى الإمام (عليه السلام) من بيان أساليب الحرب وفنون القتال في ساحة المعركة وما ينبغي لها من التأكيد على القيم الروحية والمثل المعنوية التي تشكل الدافع للقتال وتشوِّق المقاتلين إلى التضحية في سبيل الله ينتهي هنا إلى قضية مهمة تعدُّ نتيجة لما أورده الإمام (عليه السلام) ودعا إليه صحبه، وهي انه «ما عليكم الا الثبات والصمود والمقاومة لاندحار الباطل وانتصار الحق، ثمَّ يعدهم بالنصر استناداً إلى البشارة التي تضمنتها الآية ٣٥من سورة محمد وهي قوله تعالى: «فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ»[1].

والتناص يؤدي دوراً كبيراً في حبك المفاهيم وترابطها في الخطبة؛ لأن معانيها في السورة تعطي هذه المفردات المشتركة أبعاداً أجرى غير ما يظهر من معانيها منعزلة، كما تعمل بشكل عكسي، فاستخدام المفردات المشتركة في تراكيب ومعان جديدة في الخطبة أكسبها رونقاً وجمالاً وشيئاً من الإبهار والإثارة للمتلقي.

---

١. محمد/٣٥.

فعلى مستوى المعاني مثلاً نجد كلمة (الشيطان) التي ما إن يقرأها القارئ في إطار قول الإمام(عليه السلام): «فإن الشيطان كامن في كسره، وقد قدم للوثبة يداً، وأخر للنكوص رجلا» حتى يقفز قوله تعالى: «وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ»[1] إلى حيز الوجود ، لكن ....! هنا تحدث الإثارة حينما يسند إلى (الشيطان) الكمون في الخيمة في قول الإمام(عليه السلام) : (ان الشيطان كامن في كسره)، ويصفه بأنه: (قد قدم للوثبة يداً، وأخر للنكوص رجلا).

والتناص بين (الشيطان) في هذه الخطبة وبين (الشيطان) الذي في الآية يعطي ابعاداً معنوية ونفسية؛ لهذا الذي في الخطبة ويمهد لفهم واستيعاب دلالاته بصورة لا يمكن الوقوف على كنهها بهذه العجالة. آملين الوقوف على الفرق بينهما في بحث مستقل إن شاء الله.

---

١ . الأنفال/٤٨.

ومن مواطن التناص الأخرى قول الإمام(عليه السلام): «اليومَ تُبلى الأخبار» .

التي تناصت مع قوله تعالى: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ»[1] مشيرا إلى أن كل أعمال وأخبار كل فرد تبلى ويتعرض فيها الفرد للإختبار والتمحيص ليتميز منها الغث من السمين.

فانتشار هذه الكلمات في الخطب بترتيب يشبه إلى حدٍ ما تلك الموجودة في السورة يسهم في خلق نوع من التوازي بين النصين، فتكون السورة جاهزة نشطة في عالم النص تقفز مفاهيمها بين الحين والآخر لتنعكس على الخطب فتُكسبها أثراً موازياً في السبك والانسجام.

أما مواطن التناص مع كلام العرب فنجده في قول الإمام (عليه السلام): «وصلوا السيوف بالخُطا) فإنها تناصت مع قول الشاعر:

وإن قصرت أسيافنا كان وصلوها
خطانا إلى أعدائنا فتطول

---

١ . محمد/٣١.

ومثل هذا قول حميد بن نور الهلالي :

ووصل الخطا بالسيف والسيف بالخطا

إذا ظُن أن المرء ذا السيف قاصر

مشيرا(عليه السلام) إلى أن اليد «قد لا تكفي أحياناً لضرب العدو بالسيف فلا بد من التقدم بضع خطوات وضربه بالسيف».

٢ـ التناص غير المباشر:

ذكرت آنفاً أن ما كان يقتبس بروحه أو مضمونه عن طريق التلميح أو الإشارة أو الرمز تكمن له عدة فوائد منها إزالة شيء من الغموض والإبهام، وهذا ما نلمسه في قول الإمام(عليه السلام): «إن الفارَّ لغير مزيدٍ في عمره ولا محجوز بينه وبين يومه» الذي يتناص مع قوله تعالى:

«قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ »[1].

---

١ . آل عمران/١٥٤.

ويدفعنا هذا إلى محاولة تفسير هذا القول ومدى تأثيره على نفسية الإمام (عليه السلام)، فهذا القول يبين محاولات بعض جيش الإمام(عليه السلام) للنكوص والفرار، وهذا يحيلنا إلى العوامل الخارجية المحيطة بهذا النص ومنتجه، وتبدو فيه محاولات تجرها محاولات من بعض جيش الإمام (عليه السلام) للفرار وكيف أنهم كانوا يقفون بوجهه ويفسدون عليه رأيه ويؤلبون الناس ضده، بل ويفرضون عليه رأيهم. وهذا يفسر لنا شكاية الإمام (عليه السلام) وتذمره من بعض جنوده وهو يقول: «أيتها النفوس المختلفة، والقلوب المتشتتة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم، أظأركم على الحق وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد! هيهات أن أطلع بكم سرار العدل، أو أقيم أعوجاج الحق».

فيذكر الإمام(عليه السلام) كيف يحثهم على الجهاد ويتلوعليهم الحكم والمواعظ فيجابه بالصد والرد قائلا: «شهود كغياب، وعبيد كأرباب. أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها،

وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على أخر قولي حتى أراكم متفرقين أيادي سبأ. ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم. أقومكم غدوة وترجعون إلي عشية، كظهر الحنية عجز المقوم وأعضل المقوم».

فيقارن بين جيشه وجيش معاوية قائلاً:

«وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، وبمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم، فلو ائتمنت أحدكم على قعبٍ لخشيت أن يذهب بعلاقته.

اللهم إني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً مني! اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء. أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارسٍ من بني فراس بن غنمٍ» .

فهم معه بدنا لا عقلا لذا تجده يتمنى لو أنه يستبدل كل عشرة من جنده بجندي واحد من جنود معاوية قائلاً «أيها القوم، الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم،

المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم امراؤهم صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل ألشام يعصي الله وهم يطيعونه لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم يا أهل ألكوفة، منيت منكم بثلاث وأثنتين: صم ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء.

تربت أيديكم يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر.

والله لكأني بكم فيما» .

ومن موارد التناص قول الإمام (عليه السلام): «فعاودوا الكر واستحيوا من الفر، فإنه عار في الاعقاب ونار يوم الحساب» التي تناصت مع قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»[1].

---

١ . الأنفال/١٥، ١٦.

إذ نلاحظ أن ما جاء في مضمون هذه الخطبة يعد تتمةً لمضمون ما جاء في الخطبة (١٢٤) المذكورة في أعلاه وفيه يذكِّر (عليه السلام) جيشه بعواقب الفرار من جبهات القتال وما يترتب عليه من آثار دنيوية وأخروية.

الخلاصة واهم النتائج

يعدُّ موضوع الخطاب آلية من آليات الانسجام النصي، إذ بفضله يتماسك النص ككلٍّ، بحيث إنَّ المواضع الجزئية المتشكلة له تتجمع وتنتظم لتؤدي في النتيجة إلى موضوع أساس يدور حوله الخطاب.

وعلى هذا الأساس نجد أنَّ هذه الخطب الثلاثة موزعةً على أربعة مقاطع متفاوتة في عدد سطورها وكل مقطع يتناول موضوع جزئيٍّ قد يصلح أنَّ يكون خطبةً مستقلةً.

إلاَّ أن المتعمق لحركة النص في هذه الخطب الثلاثة أفقياً وعمودياً يرى أنَّ محاورها تتآزر فيما بينها لتشكل بنية كلية كبرى.

وقد بيَّنت في أول البحث أنَّ الموضوع الأساس الـذي تدور عليه هذه الخطب الثلاثة هو:

(فن القتال وطرق مواجهة الخصـم) ولتحقيـق هـذا الموضوع المركزي سنقوم بعملية اسـتقراء وتصـنيف للمقاطع وذلك بعدِّ كلِّ مقطع يعبر عن موضوع واضح وعلى النحو الآتي:

١ـ المقطع الأول: ويتعلق باستعدادات المقاتـل قبـل نشوب المعركة، وتتطلب هذه الاستعدادات توافر عدَّة أمور منها:

أ ـ ما يتعلق بآلة الحرب من سيف وخنجـر ورمـح وخوذة ودرع، وقد عبر عنها الإمام (عليـه السـلام) مجتمعة بـ (اللامة) في قوله في الخطبـة (٦٦) قـائلاً: «وأكملوا اللاَّمة».

ب ـ التأكد من سلاح المقاتل من سيف وخنجر ورمح وإدامته وتحريكه وسله من غمـده قبـل الولـوج إلى المعركة؛ لئلا يفاجأ بحدوث خلل وقت نشوب المعركة. وهذا ما عبَّر عنه الإمام (عليه السلام) بقوله في الخطبـة

ذاتها: «وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلها.... ونافحوا بالظبا وصلوا السيوف بالخطا».

ج ــ أن يعمل النظر في جيش العدو فيرفع طرفه ويحدق إلى أقاصي القوم كي يتمكن من الإحاطة بالميدان والسيطرة على حركة جنود العدو ويتعرف على نقاط الضعف والقوة، وهذا ما جسده قول الإمام (عليه السلام) في الخطبة (١١): «ارمِ ببصرك أقصى القوم».

د ــ أن يغضَّ بصره عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم لئلا يبرق بصره ويستشعره الخوف فيصيبه الجبن ولا يتمكن من مواجهة الخصم وما يستتبعه من نتائج لا تحمد عقباها وهذا ما وقف عليه الإمام في الخطبة(١٢٤) قائلا: «وغضُّوا الأبصار فإنه اربط للجأش واسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل».

٢ــ المقطع الثاني: وهو خاص بالراية لما لها من أهمية خاصة في ميدان الحرب ولدورها الفعال في ارتباط الصفوف والتحامها ولأن سقوطها يؤدي إلى اضطراب العسكر وربما إلى انهياره لذا أوصى الإمام بالراية

وصاحبها قائلاً: «ورايتكم فلا تميلوها ولا تُخلُّوهَا الا بأيدي شجعانكم».

٣ــ المقطع الثالث: الثبات في الحرب وعدم التزلزل أو الفرار التي تشكل واحدة من أهم المسائل في ميدان القتال، والتي لا يمكن تحقيق النصر بدونها، ولأن فرار عدَّة أفراد قد يؤدي إلى هزيمة عسكر جرار ويقود حضارة عريقة إلى الانهيار. وهذا ما بينه الإمام (عليه السلام) بقوله: «تزول الجبال ولا تَزُل... تد في الأرض قدمك)، و«استحيوا من الفر.... وامشوا إلى الموت مشيا سجحا»، و«لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة».

٤ــ المقطع الرابع: ثقة الإنسان العالية بالله تعالى واستعداده للتضحية في سبيله، فإن هذا الاستعداد أساس الشجاعة والاستبسال. فإذا علم الإنسان أنه بعين سيده القادر على كل شيء والمحيط به فإنه يستلهم منه العزم والقوة وعدم الشعور بالوحدة، وهذا ما نلمس في قول الإمام (عليه السلام) في الخطبة(١١):«واعلم ان النصر من عند الله»، وقوله في خطبه (٦٦): «فصمدا

صمدا حتى ينجلي لكم عمود الحق وانتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم»، وقوله في الخطبة(١٢٤): «من الرائح إلى الله كالضمآن يرد الماء».

فلتحديد البنية الكبرى للنص في هذه الخطب الثلاثة نتبع الخطوات التي وضعها فان دايك الذي يرى أننا «كي نحصل على البنية الكبرى لأية متوالية يجب علينا أن ننفذ مجموعة من العمليات، وصيغة هذه العمليات كلها حذفية تنفذ من أجل اختزال النص إلى بنية دلالية كلية». وقد حدد فان دايك هذه العمليات بالنحو الآتي:

العملية الأولى: تتعلق بحذف المعلومات العرضية.

العملية الثانية: وتتعلق بحذف معلومات مكونة (أساسية).

العملية الثالثة: تتعلق هذه العملية المسماة التعميم البسيط بحذف المعلومات الأساسية.

وانسجاماً مع إشارتنا السابقة إلى إن لكل خطاب بنية كلية يمكن أن نقسم هذه الخطب الثلاثة إلى أربعة محاور تعدَّ موضوعات يحمل عليها النص محمولات عدَّة:

المحور الأول: إن المعلومة الأساسية في المقطع الأول هي ما ينبغي للمقاتل ان يفعله قبل نشوب المعركة، وما تلاها من الأمور التي ذكرت في النقاط الأربعة تعدَّ معلومات ثانوية جاءت نتيجة له.

المحور الثاني: وفيه ينتقل التوجيه إلى الاهتمام بالراية وبيان أهميتها في المعركة. وما تلاها يعد معلومات عرضية.

المحور الثالث: ركز المحور الثالث على أهمية الثبات في المعركة وعدم التزلزل. وقد جاءت كثير من الألفاظ تشير إلى ذلك: (تزل الجبال ولا تزل..... فالمعلومة الأساسية في هذا المحور هي الثبات في المعركة.

المحور الرابع: وقد ركز على أهمية ثقة الإنسان بربه ودورها في صنع النصر.

إن هذه المحاور الأربعة قد أعطتنا المخطط البياني التالي:

استعداد المقاتل قبل المعركة

الراية النصر في المعركة

الثبات في المعركة

ثقة الإنسان بالله تعالى

إنَّ تمحور النص في هذه الخطب الثلاثة حول هذه المحاور الأربعة ضمن له الانسجام نظرا للعلاقات المتداخلة مبيناً أنَّ اجتماع هذه المحاور يؤدي بالنتيجة إلى صنع النصـــر في المعركة .

وما النصر إلاَّ من عند الله .